20020215-0003-T

مساعد حبيقة السابق يكشف ملفات من الحرب اللبنانية (٢ من ٣)

أسعد شفتري : أعدمنا مخطوفين وافترضنا ضرورة خفض عدد النواب لينجح بشير

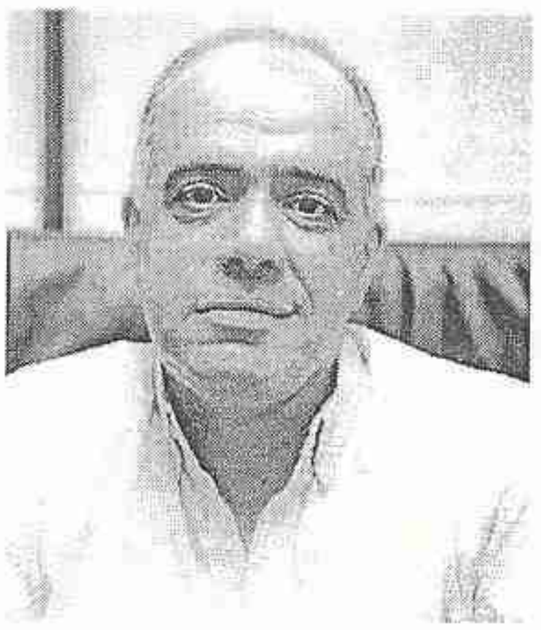

□ بيروت - حازم الامين

■ الملف الذي بين ايدينا هو حكاية رصد من رسوز الحرب اللبنانية «الحياة» لم تتدخل سوى في اعادة توليف الرواية بعد ان قدمها صاحبها بتفاصيلها ووقائعها. حاولنا عدا ذلك سياق لهذه الوقائع، وحاولنا ايضاً تقريب الرواية ودفعها الى ان تتجانس مع البيئة الاجتماعية والثقافية لراويها. دفعنا باتجاه تقديم الحرب على انها رواية صغيرة، صغيرة ليس بوقعها وتداعياتها ولكنها صغيرة لانها حدث شخصي ايضاً. كان هذا امراً صعباً لسببين، الاول ان اسعد شفتري خاض الحرب ملتصقاً بجماعته ومندمجاً في اوهامها وهواجسها، والثاني ان اسعد شفتري نشأ وكبر في جهاز أمني. ومن كانت هذه حالهم لا يجيدون الكلام، فهم دائماً خلف الصورة. على قدر ما هم حقيقتها وجوهرها.

اعدنا كتابة اجزاء من سيرة شفتري ولا ندعي هنا اننا انجزنا ملفاً من ملفات الحرب اللبنانية. فهذه الاخيرة لم تحبر بعد كرواية واحدة تتضمن الكم الكبير من الاحداث والوقائع والمآسي، ولم يتقدم احد بعد بما لديه اسعد شفتري حاول هنا، لعلنا موفق بمحاولات اخرى.

تحدث شفتري عن نشأته في ظل اجواء الشحن، وعن انضمامه في اشبال الكتائب والقوات اللبنانية، روى آلية التحكم بمصائر المخطوفين وذلك السماح الذي حصل عليه من رجل دين غفر له إعدام مئات المخطوفين. مشاريع تخفيض نسب الخصوبة لدى الطوائف الأخرى، والعلاقات العنيفة التي ربطت بين قادة القوات اللبنانية.

وهنا في الحلقة الثانية يتحدث شفتري عن ملفات المخطوفين، وعن دور جهاز الأمن في التحضير لانتخاب الرئيس الراحل بشير الجميل.

بشير الجميل في جولة ميدانية

■ شعرنا باننا في حاجة الى الامساك بالتفاصيل الامنية التي تحصن في المنطقة، فقد كانت تقع حوادث كثيرة لم نكن نعلم بها. هناك مجموعة في الرميل خطفت رجلاً وراحت تحقق معهم، وفي الجميزة التي مرافقو هذا الزعيم القبض على اشخاص اخرين، وتعرّض فلان للتضرب لان ثمة من ارتاب بانه يراسل الفلسطينيين. شكاوى كثيرة راحت ترد، وصار من الضرورة ان نجد لهذه الشكاوى قناة تعبر إليها. بشير هو من طلب هذا الامر، وفي ذلك الوقت كانت علاقتي ببشير مباشرة، فقد كان شاباً متواضعاً ومتوجداً بيننا، وكوني في سلاح الاشارة، عنا مخطوطين لاتصال به لتلقي تعليماته وإرساله، وهذا الاحتكاك المباشر به قربني منه.

النواة الأمنية التي شرعنا بتاسيسها كانت ضمن منطقة الاشرفية فقط، إذ لم يكن بشير في حينه مسؤولاً عن غير هذه المنطقة. اعطانا الحزب شقة صغيرة لهذا الهدف، وجمعنا نحن مجموعة اصدقاء وبدانا بتجميع معلومات من الصحف وإرسال تعليمات الى المناطق والمناريس والمراكز نطلب منها تزويدنا بالمعلومات والمطبوعات، خصوصاً تلك التي كانت تصادر من منازل دوهمت، بعضها يعود الى لومبين سوريين وشيوعيين مقيمين في المنطقة. طلبنا منهم عدم اتلاف الاوراق المصادرة من هذه المنازل ... وشيئاً فشيئاً راحت الامور تنتظم، واعتمدنا في البداية على التركيبة الموجودة، فالتقسيم الاداري لحزب الكتائب والمتمثل بقسم في كل منطقة وخلية في كل مؤسسة، يتيح الافادة من المعلومات التي ترسل عبر الهيئات الى راس الهرم. ثمة حادثة تالية حصلت معي في تلك الفترة او قبلها بقليل، لا ادري لماذا ما زالت تفاصيلها حاضرة في ذهني الى الآن. فقد دخلنا الى منزل احد الشيوعيين في منطقة الاشرفية، وكان صاحب المنزل وعائلته قد اخلاه. عثرنا في المنزل على ثياب عسكرية وربما على سلاح، لم اعد اذكر التفاصيل. ولكن ما اذكره اننا عثرنا على وثائق للحزب الشيوعي وكتب وشرائط تسجيل، واذكر اننا استمعنا الى بعض الاغنيات، ومنها «طفات الليلة شموعي الخمسين»، التي من المرجح ان تكون غنيت في العيد الخمسين للحزب الشيوعي، واغان اخرى عربية. كان امراً غريباً بالفعل، وجديداً علينا كل الجدة. كنا نسمع عن وجود شيوعيين بيننا، ولكننا لم نكن نلمس ذلك لدى اليد. الامر كان اشبه بذلك الانبهاش الذي يحدثه بالمستشرق اكتشافه تفاصيل جديدة عن حياة كائنات بعيدة. واذكر اننا عثرنا على لائحة باسماء عدد من الاشخاص وعلى هذه اللائحة كتبت عبارة «دائرة ١١»، وما زلت اشعر برغبة في معرفة ماذا تعني هذه الكلمة.

في العام ١٩٧٧ وهو العام الذي تلى تخرجي من الجامعة، توظفت في مصنع في مدينة جونية. كنت مسؤولاً عن نحو ١٠ عاملاً، وكنت اعمل من الثامنة صباحاً وحتى الرابعة مساء. وبعد الظهر اعود الى مركز خدمتي في بيت الكتائب. بليت على هذه الحال اشهراً، الى ان صادف انني كنت في المعمل مرتدياً ثياب العمل وجاء بشير لزيارة صاحب المعمل الذي يبدو انه كان صديق آل الجميل. وما ان رآني بشير حتى قال «اسو ... ماذا تفعل هنا؟». فاخبرته بانني موظف في المعمل، فاستغرب الامر، خصوصاً انه كان يشعر بانني دائم الوجود في بيت الكتائب. وبعد مغادرة بشير رحمه الله استدعاني صاحب المعمل رحمه الله وسالني عن سبب معرفتي ببشير وما هي حكاية «اسو». فاخبرته بحقيقة عملي بعد الظهر. وعندها قال لي انه علي ان ابقى بالقرب من بشير وسيبقى راتبي يتبطى الى المنزل. وهكذا كان واستمريت بتلقي الراتب حتى العام ١٩٨٥. وتصرف هذا الشخص لم يكن غريباً، فكثيرون من اصحاب الاعمال والشركات شعروا بان من واجباتهم تغذية الماكينة التي كانت تمثلهم. كل المجتمع المسيحي كان منجمداً لنا، فسلاح الاشارة عملاً بني من دون اي كلفة. فلان تبرع بجهاز واخر تبرع بهوائي. لقد كانت حملات حزب الكتائب بالمجتمع المحيط مذهلة.

وفي العام ١٩٧٧ ايضاً قررت قيادة الكتائب تجميع الوحدات العسكرية في قيادة واحدة، وجمعت من مبنى السيكومكس مقابل بيت الكتائب المركزي في الصيفي مقراً لهذه القيادة. قسمت الوحدات الى ثلاث شعب، تولى في حينه جوني عبده (رئيس استخبارات الجيش اللبناني في ذلك الوقت) تنظيم الشعبة الثانية، وفي شعبة المعلومات، وشارك في تنظيم هذه الشعبة ضباط من الجيش اللبناني كانت مهمتهم تقسيم الطبيعة والوحدات وتاسيس نواة عمل تخليصي، وكونا كنا شكلنا وحدة امنية في الاشرفية. فقد كنا النواة التي من المفترض تحويلها الى جهاز امن لم يحل الامر كثيراً بجوني عبده في السيكومكس، إذ دخل السوريون الى بيروت وكانوا حلفاءنا في بداية الامر، وتحولت النظارة عن هذه المشاريع

تأسيس الجهاز

لم اكن الرقم واحد في جهاز الامن التابع لبشير. كنا مجموعة نتطلع على بعضنا اسماً واحداً هو «ابو مارون». وحتى العام ١٩٧٩ لم يكن جهاز الامن الذي استساغ مركزياً، وإنما كان تابعاً لمنطقة الاشرفية الكتائبية. وفي هذا الوقت كانت للمناطق الكتائبية المختلفة اجهزة امنية مستقلة. وفي احدى المرات حاولت ان احصي عدد اجهزة الامن التي تعمل في المناطق الشرقية، ووصلت الى الرقم عشرين وتوقفت عن العد. فمنطقة الرميل كان لها جهازها الامني المستقل ومنطقة الصيفي ايضاً والدور والحدث. الجهاز المركزي الذي انسى لاحقاً انطلق من الاشرفية، وهو تحول مركزياً بالتدريج، فكنا كان بشير يقوى كان جهاز امن الاشرفية يسيطر اكثر الى ان انطلق بشير وانطلقنا معه للسيطرة على معظم مناطق بيروت الشرقية والجبل الشمالي.

مرت قضية تاسيس جهاز امن القوات اللبنانية بمراحل مختلفة. فنحن في بيت الاشرفية استدرينا في وظيفتنا كوحدة معلومات ولم يكن لنا اي دور تنفيذي، ولم يكن لدينا سجون او عناصر امنية. وحتى العام ١٩٧٩ كان العسكر مسيطراً على الوضع العام ايضاً كان كنا دائرة معلومات وتحليل. وفي هذا الوقت كان في المجلس المركزي قرب الكتائبيا جسم تنظيمي آخر وكان لديه سجن وعسكر، كان يشكل نا يشبه جهاز امن يترأسه ايلي حبيقة.

عندما اغتيلت مارتا بشير الجميل في انفجار السيارة في الاشرفية، قرر بشير توحيد الجهازين الامنيين حتى يحصل تنسيق بين المعلومات والتدابير الامنية. كنت انا في الاشرفية وإيلي حبيقة في المجلس المركزي حصل الدمج وصار ايلي حبيقة رئيس جهاز الامن وصرت انا مساعده، وبقيت الرقم (٢) في جهاز الامن الى ان تولى حبيقة قيادة القوات فصرت الرقم (١).

كان دوري تنظيمياً وداخلياً، وساعدتني بروتي وعدم رغبتي في الظهور على النجاح في مهماتي. لقد انحب معظم اجتماعي على حرصي على ان اكون فاعلاً، وان تتمر الاعمال التي اقوم بها. كنا كل ستة اشهر نجري تقويماً لدور جهاز الامن وفاعليته، وتعيد خلط الأوراق من جديد. لم يكن عملنا قائماً فقط على تقويمنا نحن لاعمالنا، بمقدار ما كان قائماً على تقويم اجهزة استخبارات خارجية لقد كانت مرحلة تخللها تعاون مع خبرات كثيرة، وقراءات وتعمق ودورات تدريب في الخارج.

في هذه المرحلة اصبح جهاز الامن منظماً، صار لدينا نحو ٨٠ عامل ارشيف وثمانية ماكينات مايكروفيلم، وكان يدخل يومياً الى الارشيف نحو الف وخمسمئة وثيقة وعدد من قصاصات الجرائد، واصبح لدينا نحو ٨٨ محلل معلومات من بينهم اساتذة جامعيون. تحول الجهاز الى ماكينة حديثة، صرنا نملك جهازا للتنصت السلكي واللاسلكي وتحاسب العسكريين، اما في المواضيع الامنية فكنا نحن المحقق والقاضي والجلاد في آن.

بالنسبة إلي، لم اكن انزل الى السجن الا في حال وجود اشخاص مهمين جداً، فاضطر الى النزول حتى اشرف على التحقيق، فالتحقيق حرفة ودربة، وهو ليس عبارة عن وضع شخص وسؤاله وضربه، انها عملية تطور كلما تطورت المعلومات وتكشفت وتقاطعت، وكلما اصبح في امكانك تقويم هذه المعلومات التي يعترف بها المستنطق.

عندما ترشح معلومات مهمة يزودني بها المحققون كنت انزل الى السجن بنفسي، فقد يكون من المفترض ان ازود القيادة السياسية بالمعلومات الجديدة، في ما عدا ذلك كان يصلني ملف بعمق قدمه نحو ٦٠ شخصاً، إضافة الى مسؤولي المكاتب ومحرري المحاضر وثلاثين مسؤولاً عن السجون.

وفي هذا الوقت اصبحت لدينا الصلاحية المطلقة لاستلام أي معتقل، وكان هدفنا من احتكار هذه الصلاحية جمع المعلومات.

مصائر المخطوفين كان يحددها من هم في مستوى وصعوداً، طبعاً المخطوفين الذين كانوا يصلون الينا، اما الذين لم يصلوا، فاصغر عنصر كان يملك التحكم بمصائرهم. لم يكن للقيادة السياسية الكتائبية او غيرها سلطة عليها، خصوصاً انها كانت تسعى في معظم الاحيان للافراج عن اشخاص معتقلين. كنا ناخذ قرارنا بحصر المخطوفين بناء على معطيات كثيرة، والموقوفون كانوا مستويات. المستوى الاول ثم اولئك الذين كانوا معروفين لدينا بانهم غير مهمين، وغالباً ما يكونون اوقفوا لاسباب تافهة. وهذا النوع غالباً ما كنت اقول للدكتور جان غانم رحمه الله، (ممثل القوات في لجنة المخطوفين في حينه) ان في امكانه ان يستفيد منهم، اي ان يبادلهم بمخطوفين مسيحيين في الجهة المقابلة. وهناك انواع اخرى كنا نرفض تسليمها وكنا نتعرض لضغوط كثيرة. واحياناً كنا نقوم باعدامهم قبل ان تنجح الوساطات.

في موضوع الامن اليومي اتضحت محاكم مدنية تفصل في شكاوى الناس ونزاعاتهم. وكان لدينا ايضاً محكمة عسكرية تراقب التحقيق، وفي المدة الاخيرة بعدما كثرت الاعمال والمهمات، اصبحت اطلب ملخصاً عن الملف وعلى اساس هذا الملخص يتقرر مصير المخطوف. فالملخص كنا نبقيه لدينا كبنك معلومات، كلما احتجنا معلومات عن قضية معينة كنا نطلبه الى التحقيق، والبعض الاخر نبقيه كبنك تبادل، والبعض اخلاء سبيل لاهداف عدة منها بناء علاقات مع شخصيات او جهات سياسية، ومنها اخلاء بعد تجنيد. اما القسم الاخير، فكنا نقوم باعدامه. واقول هنا بكل اسف ان كثيرين اعدموا. في منطق الحرب التي كانت سائدة في ذلك الوقت، استطيع القول انني لم ندم اي بريء (بريء في منطق الحرب وليس في منطق اليوم. فانا ارى ان هذه الاحداث والتي الم على نفسي مما فعلت) لقد كانت اوهام الوجود مسيطرة علينا.

كرسي الاعتراف

في ذلك الوقت كان ضميري مرتاحاً، كنت اذهب كل نهار احد الى الكنيسة واصلي من دون اي شعور بالذنب. فانا كما اكدت كنت جزءاً من حال عامة. وهنا اود ان اروي حكاية صغيرة حصلت معي، فقد حضر احد رجال الدين الى مكتمنا وعرض علينا ان يجري قداساً وان يفتح لنا باب الاعتراف. وعندما جاء دوري قلت له «لا ادري ماذا اقول لك انا على المستوى الشخصي لا شيء مهماً اعترف به، ولكن على المستوى العام، وضمن مسؤوليتي اضطررت خلال هذه الفترة ان اوقع على ملفات لاعدام اناس كثر». رد رجل الدين طالباً مني الا احمل هم هذه الاعمال. واضاف انه سيغفر لي سلفاً قتل خمسمئة شخص، قد اقوم بقتلهم لاحقاً. اذكر انني خرجت من غرفة الاعتراف مرتاحاً ومطمئناً. اليوم يخيفني ان اشعر بهول ما قاله هذا المحرف، وكلامي هذا ليس من باب تحميله المسؤولية، فانا مسؤول عن اعمالي واخطائي ... لقد كان ضميري مرتاحاً في تلك المرحلة، لان المجتمع كان يعيش حالي وكان يسمح بما فعلت.

انضمنا وحدة في القوات اللبنانية لمكافحة تعاطي المخدرات وتجارتها، وقتلنا عدداً من المروجين. لم نكن نملك وسائل افضل. فان التركيبة مبنية على الامن والعضل وعلينا ان نتابع طريقنا الى آخره، وانت لا تستطيع ان تقول «الامر لي» والا يكون الامر لك. كان حدفنا الامساك بالمنطقة وان «لا تسقط شعرة من رؤوسكم من دون علمنا». وامن المجتمع المسيحي فوق كل اعتبار. كان اعجابنا بالغرب يتوقف عند مساعدة اننا في اوضاع حربية، فالغرب متسامح وديموقراطي خارج الحرب، ولكن في ظروفنا لا محال لاي اختلاف. لم يكن احد يعترفني في الشارع المسيحي وصولاً الى الاتفاق الثلاثي الذي فاوضنا في ثمانه باسم المسيحيين. خلال كل فترات الحرب لم يكن لدي طموح شخصي. لقد انصب طموحي في العمل على ضرورة ان يكون ما اقوم به ناجحاً ومثمراً. كان لدي طموح غامض يتعلق برغبة عارمة في ان «منجح عملي». امر من الصعب تعريفه بالاخلاص، كان شيئاً اعلى ربما، ولهذا لم اصبح الرقم واحد. ربما ارد ذلك الى نشاتي في منزل يميل اهله الى الصمت، وربما كان عملي المتواصل في جهاز الامن ما اكسبني هذه الخصال.

كنت ميالاً للتعاطي من خلف المكتب، لم اكن ميدانياً ولم انزل الى الشارع لاتعاطى مع العسكر. لم اكن محسوباً من العسكر، فلهؤلاء عصبيتهم الخاصة التي لم تضمني يوماً، خصوصاً انني لم انرق في اسلاكهم. كان عملي ادارياً وتنظيمياً، كخلق اجهزة وتنظيم وحدات وتدريبها وإعطائها اهدافها ومهماتها.

وللاهداف مصدران، الاول هو قيادة القوات اللبنانية، والثاني هو قيادة جهاز الامن فمثلاً عندما تصل الى اقتناع بان هذا الرمز يجب ضربه حتى تخلو الساحة منه، كنا نحدد الهدف وننفذ بحسب مستوى الشخص، اذا كان من الفئة الثانية كنا نتصرف من تلقائنا ومن دون استشارة احد، ولكن اذا كان الرجل - الهدف سياسياً، او رجل امن من الفئة الاولى فكنا نضطر للعودة الى القيادة واستشارتها.

وكان من مهماتنا مثلاً خلال حصار مدينة زحلة بين العامين ١٩٨٠ و١٩٨١ تامين الذخائر والسلاح للمدينة المحاصرة. كان قسم منا ينزل من الجبال الى المدينة، والقسم الآخر كنا نؤمنه بوسائل من نوع تصفيح الشاحنات والسيارات. ومن مهماتنا ايضاً تخريب الجبهات عبر مجموعات نرسلها الى الداخل. ومن الامثلة في هذه الفترة لا بد من ذكر المعارك التي دارت بين حركة «امل» والفلسطينيين بين العامين ١٩٧٩ و١٩٨١. فكنا نؤمن الذخائر لحركة «امل». كان الامر يتم عبر وسطاء غير مرئيين.

كان لدينا حس مؤسساتي كبير، ففي حينها تحولت القوات الى مؤسسة فعلية، اصبح لدينا امكانات بشرية حقيقية، وانا اشعر مجندون في بناء دولة يرعبونها فمثلاً كنا نمنع استيراد اي سلاح لا ياتي عبر القوات اللبنانية حتى لو كان لقوة حليفة، وارجعنا عدداً من الشواحن المحملة بالسلاح لاحزاب مسيحية. قد يذكر هذا الامر بتلك الباخرة التي كانت تنقل سلاحاً لإحدى المنظمات اليهودية خلال حرب ١٩٤٨ ووصلت الى مرفا حيفا بعد ان كان بن غوريون اعلن «منع استيراد السلاح لغير الجيش الاسرائيلي النظامي». فقلنا هذا الجيش بمقصفها ويقال ان مناحيم بيغن كان على متنها واصيب. اجل كانت تجربة بناء دولة اسرائيل ماثلة امامنا، وكنا معجبين كثيراً بذلك الاصرار والحس التنظيمي الدقيق لديهم والذي مثل بالنسبة لنا في تلك الفترة، سر نجاح هذه الدولة في ظل عداوة محيطها الشديدة لها. وكان وضعنا مشابهاً او هذا ما كنا نعتقده.

لقد سهل لنا دخول الاسرائيليين الى بيروت في العام ١٩٨٢ حقبة جديدة من الاحلام والنشوات. اعتقدنا اننا نحن من ورط الاسرائيليين بهذا الفخ. ولكن حال الانتشاء اختلطت عندي بمشاعر اخرى غريبة لم افهمها انا ما زلت احتفظ صورتين لتلك المرحلة تزيدان من شعوري بتعقد اوضاعنا نحن المسيحيين. ذهبت وبدافع شخصي الى منطقة المتحف لاعاين كيف يجاور الاسرائيليون الدخول الى المناطق الغربية من بيروت. انتابتني مشاعر لم اتمكن من ضبطها، فللحظات قصيرة عادت فكرة الغرباء لتسيطر على تفكيري لهذا الجيش. شعرت ان ثمة فروقات قليلة بين الاسرائيلي نظرياً وبيئة عملياً، تساءلت عن صوابية ما يجري ... كان عبور الناس من المناطق الغربية الى المناطق الشرقية كثيفاً، واصابنا هذا العبور باجراج كبير. كان المطلوب منا تسهيل العبور، ولم نكن نستطيع استيعاب هذه الاعداد امنياً. لقد كان هؤلاء الى الامس اعدامنا والبوم المطلوب استيعابهم وتسهيل مرورهم، شعور بالاستفزاز حيناً وبالشفقة في احيان اخرى.

تحضير الانتخابات

لقد لعبنا كجهاز امن دوراً فاعلاً خلال التحضير لانتخابات رئاسة الجمهورية التي انتخب فيها بشير رئيساً. قمنا بغزالة عمليات خاصة، وكان عملنا متعدد المستويات، كمعرفة اجواء المسلمين، ومحاولات الاتصال بنواب يعيشون خارج المناطق الشرقية من بيروت في محاولة لضمهم الى صفوفنا عبر كل الطرق ومهما كانت الوسائل. الترغيب والتهديد والمال والسياسة، وكان في حساباتنا ان تصبح عدد النواب حتى يشكل العدد المقترع لمصلحة بشير من النواب غالبية. واذكر اننا كنا في حاجة لان نغيب نائبين فتضمن الغالبية. عملنا على مراقبة النواب الذين يعيشون في المناطق الشرقية، راقبناهم هاتفياً وجسدياً. لقد كان همنا استمرارهم احياء لكي يذهبوا في نهار التصويت الى القباضية ليقترعوا لبشير. ونجحنا في ذلك باستثناء البير مخيبر الذي كان اعلن انه سيقاطع جلسة الانتخاب في ظل الدبابات الاسرائيلية. فرزنا سيارتين لمراقبته وكنا في نهار الانتخاب على استعداد لاحضاره بالقوة ولكن جاءنا امر بعدم التعرض له

مقاتلان من القوات اللبنانية في احدى المعارك في بيروت.